

**الدبلوماسية الروسية في مصر و بلاد الشام
خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر**

د. محمد حبيب صالح

قسم التاريخ - جامعة دمشق

الدبلوماسية الروسية في مصر وبلاد الشام خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر

١ - الصراع الدولي للسيطرة على مصر وبلاد الشام ١٧٩٨ - ١٨٠١ م:

مع نهاية القرن الثامن عشر، وبداية القرن التاسع عشر، ازدادت حدة الأزمة الاقتصادية والسياسية التي كانت تعيشها الدولة العثمانية منذ سنوات عديدة. ولعبت العوامل والظروف الدولية آنذاك دوراً كبيراً ومؤثراً في ذلك، خصوصاً الثورة البورجوازية الفرنسية عام ١٧٨٩م، وما نتج عنها من أفكار تقدمية ديمقراطية انتشرت في أوساط الشعوب والأمم الخاضعة للسيطرة العثمانية، بالإضافة إلى الثورة الصناعية التي كانت قد بدأت في انكلترا، وانتقلت عبر المانش إلى بقية البلدان الأوروبية، وخصوصاً إلى فرنسا. فقد ترك هذان العاملان على وجه التحديد عظيم الأثر على التطورات الاقتصادية، والسياسية، داخل الدولة العثمانية، وتطلّبت الإنجازات الكبيرة التي حققتها الثورة الصناعية والزيادة الهائلة في إنتاج البضائع الصناعية، البحث عن أسواق جديدة لتسويق وتصريف هذا الفائض الكبير، ومصادر جديدة للمواد الأولية اللازمة للصناعات المختلفة^(١). وبما أن الدولة العثمانية كانت تعتمد في دخلها القومي بالدرجة الأولى على الاقتصاد الزراعي، وعاجزة عن الصمود في وجه الاقتصاد الصناعي المتطور للدول الرأسمالية الغربية، وفي وقت كانت فيه هذه الدول بأمس الحاجة إلى المنتجات الزراعية التي تنتجها الولايات العثمانية، وخصوصاً في مصر وبلاد الشام، فقد تحولت هذه المنطقة إلى ساحة تتصارع فيها القوى الرأسمالية العظمى، وتسعى للسيطرة عليها كل بطريقتها الخاصة.

من ناحية أخرى، أدت عملية التنافس بين الدول الرأسمالية العظمى للسيطرة على أسواق مصر وبلاد الشام، إلى إحداث أزمة حقيقية للدولة العثمانية من خلال ازدياد الثورات، وحركات التحرر الهادفة إلى التخلص من نير الظلم العثماني. وكانت ضغوطات الإقطاعيين في الأرياف على الفلاحين ومصادرة منتجاتهم الزراعية بغية بيعها للشركات التجارية الغربية، وزيادة حدة الظلم الذي عانى منه الحرفيون والتجار في المدن من أهم أسبابها^(٢).

أدت المنافسة القوية، والتزام بين انكلترا وفرنسا إلى زيادة حدة التوتر في الأوضاع الدولية، خصوصاً خلال فترة الحروب النابليونية. وكانت علاقة نابليون بونابرت مع السلطان العثماني سليم الثالث غاية في التعقيد، والكراهية، في وقت كان فيه بونابرت يسعى إلى أضعاف موقف انكلترا في مصر، وبلاد الشام، وانتزاعها من العثمانيين. وفي سبيل تحقيق هذا الهدف، توجه إلى مصر على رأس حملة عسكرية في ٣٠ حزيران ١٧٩٨م تمكنت من السيطرة عليها، ثم حاول نابليون السيطرة على بلاد الشام مع مطلع عام ١٧٩٩م، غير أنه فشل في تحقيق مهمته هذه بعد المقاومة التي أبدتها مدينة عكا بمساعدة الأسطول الإنكليزي من البحر، فعاد نابليون إلى مصر، ومن هناك أبحر في ٤ آب ١٧٩٩م إلى فرنسا^(٣).

أدت السياسة الفرنسية الجديدة تجاه مصر، وبلاد الشام، ومحاولة السيطرة عليها بالقوة العسكرية، إلى حدوث تغيير كبير في السياسة الروسية تجاه الدولة العثمانية. وكانت سياسة سانت بطرس بورغ قد تمحورت، منذ عهد القيصر الروسي بطرس الأكبر حول هدف رئيسي غير معلن، يرمي إلى إعادة إحياء الإمبراطورية البيزنطية المسيحية الشرقية، والسيطرة على كافة الأراضي التي تقطنها الشعوب السلافية، واعتبرت روسيا نفسها الوريث الشرعي لهذه الإمبراطورية، وبالتالي فقد سعت السياسة الروسية منذ ذلك التاريخ لتحقيق هذه الهدف. وشكّل شعار الوصول إلى المياه الدافئة ستاراً، تخفي وراءه المطامع والتطلعات الروسية، في السيطرة على مناطق

المضائق، وبتحويل البحر الأسود إلى بحيرة روسية. وقد ظهر هذا التغيير في الدبلوماسية الروسية تجاه الدولة العثمانية في التقارب الذي أنهى مرحلة حقد وعداء استمرت بين الدولتين ١٢٠ عاماً، ودفع الخلل الذي حصل في توازن القوى الأوروبية من خلال قرار فرنسا السيطرة على مصر وبلاد الشام، كل من روسية القيصريّة، والدولة العثمانية، إلى التوقيع في ٣ كانون الثاني عام ١٧٩٩م على أول تحالف دفاعي بين الدولتين مدته ثماني سنوات، تعهدت بموجبه روسية القيصريّة بتزويد الدولة العثمانية باثنتي عشرة سفينة من أسطولها الحربي، وإمدادها بجيش يترواح عدده بين ٨٠ و ٧٥ ألف جندي عند الضرورة، مقابل السماح للسفن الحربية الروسية بالمرور عبر مضائق البوسفور والدردينيل^(٤).

لقد مكنت هذه الاتفاقية الدبلوماسية الروسية وللمرة الأولى من القفز إلى ما هو أبعد من منطقة المضائق، والتفكير بإيجاد مصالح لروسية في الشرق العربي، وكانت الاتفاقية بمثابة رسالة موجهة إلى الدول الغربية بأن الدبلوماسية الروسية تسعى جاهدة إلى شغل مكان مناسب لها في المسألة الشرقية. ومنذ ذلك التاريخ، أصبحت عملية دفع الدولة العثمانية لعقد مثل هذه الاتفاقات، عن طريق استغلال الأوضاع والتطورات المتتابة على الساحة الدولية والمتعلقة بالدولة العثمانية، هدفاً للدبلوماسية الروسية كما سنرى لاحقاً.

في ٥ كانون الثاني عام ١٧٩٩م، أي بعد مرور يومين فقط على التوقيع على اتفاقية التحالف الدفاعية الروسية - العثمانية، سارعت انكلترا إلى التوقيع على اتفاقية تحالف عسكرية مشابهة مع الدولة العثمانية، وذلك خوفاً من ازدياد النفوذ الروسي، الذي يمكن أن يقطع الطريق على التطلعات الإنكليزية نحو مصر، الواقعة على طريقها التجاري إلى مستعمراتها في الهند الشرقية، درّة التاج البريطاني، وبلاد الشام القريبة من منطقة القفقاس، التي كانت تُعدّ هدفاً للتطلعات الإنكليزية في تلك الفترة. وقد نصت اتفاقية التحالف هذه على تعهد الحكومة الإنكليزية بالوقوف بشكل مباشر

إلى جانب الدولة العثمانية، وحماية كافة ممتلكاتها، وضد الغزو الفرنسي لمصر وبلاد الشام، مقابل أن يتعهد السلطان العثماني بإغلاق المضائق، وجميع الموانئ في الدولة العثمانية في وجه السفن الفرنسية، وذلك من أجل تدمير تجارة فرنسا في الشرق وخصوصاً في بلاد الشام، والبحر المتوسط، وإعداد جيش مؤلف من مائة ألف جندي لتحقيق هذا الهدف. وبذلك أصبحت الدولة العثمانية عضواً في التحالف الدولي المعادي لفرنسة^(٥).

من جانبها بدأت قيادة الحملة الفرنسية على مصر تسعى إلى توطيد دعائمها في البلاد، والاحتفاظ بها، في وقت سارت فيه التطورات الدولية وفق خط لا يتماشى والمصالح الفرنسية. فعادت روسيا القيصرية في عام ١٨٠٠م ووقعت مع الدولة العثمانية على معاهدة تحالف دفاعية جديدة، مدتها تسع سنوات، تضمنت بالإضافة إلى تعهد الطرفين بالوصول إلى إقامة تحالف دفاعي بين مختلف القوى الأوروبية العظمى، التي تعارض التوسع الفرنسي، السماح للسفن الحربية الروسية بالمرور عبر مضائق البوسفور والدردنيل، ونقل العتاد العسكري، مقابل تقديم الدعم العسكري الروسي للإمبراطورية العثمانية. كما نص البند الثاني من معاهدة التحالف هذه على تشجيع حكومة القيصرة الروسي لحكومات النمسة وبروسية، والدانيمارك، والسويد، للدخول في التحالف الذي تم الاتفاق عليه مع انكلترا لتشكيل ضغط جماعي على فرنسا، ودفعها للعمل مع الدول الأوروبية على إقامة نظام دولي يكفل التوازن، والأمن، والاستقرار في أوروبا. ويحافظ على السلام، ويحترم مبادئ القانون الدولي.

كما نصت الاتفاقية على اعتبار البحر الأسود منطقة مغلقة محرمة على السفن العسكرية التابعة للدول الأخرى، وفي حال ظهور أية قوى فيه، يعمل الطرفان المتعاقدان (روسيا والدولة العثمانية) للقضاء عليه بشكل مباشر^(٦).

تنفيذاً لاتفاقات التحالف الروسية – العثمانية قامت القوات البحرية المشتركة بكلا الدولتين، والتي كانت في غالبيتها من قوات الأسطول الروسي بقيادة الأدميرال

أوشاكوف، بطرد القوات الفرنسية من جزر إيوان، وفي ٢١ آذار عام ١٨٠٠م أعلنت جزر إيوان السبع جمهورية مستقلة متحدة مع الدولة العثمانية، وتحت حماية روسية القيصرية^(٧).

في ظل سياسة التحالفات الروسية_العثمانية هذه فهمت الحكومة الفرنسية عدم جدوى التمسك بالسيطرة على مصر، وبدأت تسعى إلى نفس هذه التحالفات، وذلك بضرب السياستين الروسية والإنكليزية في المنطقة، وأوعزت إلى الجنرال كليبر الذي كان قد خلف نابليون في قيادة الحملة في مصر بالتفاوض مع العثمانيين والإنكليز من أجل التوصل إلى اتفاق تتسحب بموجبه القوات الفرنسية من مصر. وبالفعل فقد تمكن كليبر من التوقيع على اتفاقية الجلاء مع الإنكليز يوم ٢٤ تشرين الثاني عام ١٨٠٠م. غير أنه تبين بعد ذلك بأن انكلترة رغم توقيعها على الاتفاق مصممة على عدم السماح بخروج القوات الفرنسية، وتطالب باستسلامها. فقرر كليبر توجيه ضربة قوية للجيش العثماني الذي كان قد نزل إلى الأراضي المصرية، من خلال خطة عسكرية بدأ كليبر تنفيذها يوم ٢٠ أيار ١٨٠٠م انتهت بانتصار ساحق للفرنسيين على العثمانيين. الأمر الذي دفع الحكومة الإنكليزية على إنزال قواتها على الشواطئ المصرية ربيع عام ١٨٠١م، حيث تمكنت هذه القوات من اقتطاع القوات الفرنسية إلى قسمين، فاضطر الجنرال مينو الذي كان قد خلف كليبر بعد مقتله في قيادة الحملة إلى التوقيع على معاهدة الجلاء عن مصر على ظهر السفن الإنكليزية.

٢- أثر المتغيرات المحلية والدولية على الدبلوماسية الروسية في مصر وبلاد الشام ١٨٠٢-١٨٢٧م:

أدت عملية انسحاب الحملة الفرنسية من مصر عام ١٨٠١م إلى إحداث نوع من التقارب بين فرنسا وانكلترة، انعكس بشكل سلبي على الدبلوماسية الروسية في المنطقة. وفي ٢٧ آذار عام ١٨٠٢م، تم التوقيع على معاهدة السلام الإنكليزية -

الفرنسية التي أنهت المرحلة الأولى من الحروب النابليونية. وقد تضمن البند الثامن من المعاهدة الحفاظ على أراضي وممتلكات وحقوق الباب العالي بما في ذلك مصر وبلاد الشام. في حين دعى البند رقم ١٩ من المعاهدة الدولة العثمانية للانضمام إلى المعاهدة. وبالفعل فقد وافق السلطان سليم الثالث على ذلك، ووقعت الدولة العثمانية مع فرنسا على معاهدة للسلام بينهما في ٢٥ حزيران عام ١٨٠٢م، تضمنت إقامة سلام بين الدولتين، وإحياء المعاهدات والامتيازات السابقة، والسماح للسفن الفرنسية بدخول مضائق البوسفور، والدرنديل، والملاحة في مياه البحر الأسود دون اعتراض^(٨).

بهذا الشكل تكون فرنسا وناكثرة قد قطعتا الطريق على الدبلوماسية الروسية في المنطقة، والتي كانت قد نجحت كما رأينا، ووصلت إلى حدّ التوقيع على معاهدات تحالف مع الدولة العثمانية. وكانت عملية امتداد النفوذ الروسي إلى داخل الدولة العثمانية، واستغلال روسية القيصريّة لحاجة الدولة العثمانية إلى الدعم العسكري والسياسي المباشر ضد فرنسا في مصر، وبلاد الشام نابعة من أهداف، وتطلعات روسية خاصة، وبالتالي كانت الأهداف والتطلعات الدبلوماسية الروسية أحد أهم الأسباب والدوافع التي كانت وراء التقارب الفرنسي - الإنكليزي، ثم التوقيع على الاتفاقات الإنكليزية - الفرنسية، والفرنسية - العثمانية عام ١٨٠٢م.

بالإضافة إلى ذلك يمكن القول: بأن اتفاقات السلام العثمانية - الفرنسية التي تضمنت كما ذكرنا، السماح للسفن الفرنسية بعبور المضائق، والملاحة في البحر الأسود شكلت رسالة تهديد لروسية القيصريّة من خلال السماح للسفن التابعة للدول الكبرى بعبور المضائق والوصول إلى الشواطئ الروسية الجنوبية، وكان الهدف من ذلك إفهام الحكومة القيصريّة بعدم السماح لها بالامتداد جنوباً، وزيادة نفوذها في الشرق العربي، الأمر الذي دفع روسية منذ ذلك التاريخ، إلى العمل على استغلال الأوضاع، والظروف الدولية، التي كانت تعيشها منطقة شرقي البحر المتوسط ومصر واليونان فيما بعد لتحسين وتكريس نفوذها في هذه المناطق قدر المستطاع.

في عام ١٨٠٥م، حُصِمت مسألة الصراع على قمة السلطة في مصر، التي كانت قد بدأت مباشرة بعد انسحاب الحملة الفرنسية، وشكلت الدولة العثمانية من خلال الباشوات التي كانت ترسلهم إلى مصر، والمماليك المدَّعين من قبل الإنكليز، ومحمد علي الذي اعتمد على السكان المحليين، أطرافها الرئيسية لصالح محمد علي باشا. ومع وصول محمد علي إلى السلطة، بدأت مرحلة جديدة من تاريخ مصر والمنطقة العربية بشكل عام وتغيرت خلالها المعادلات السياسية، وتبدلت وتقلَّبت فيها مواقف الدول العظمى وفقاً للوضع الذي كانت فيه مصالحها، وظهرت الدبلوماسية الروسية في وضع غير مرضٍ على الإطلاق، الأمر الذي تطلب من سانت بطرس بورغ مضاعفة الجهود لدراسة أوضاع بلاد الشام من قبل العديد من البعثات الروحية وبعثات الرحالة الجغرافيين، وإعادة تقييم السياسات الروسية بناء على التقارير التي كانت تقدمها هذه البعثات إلى وزارة الخارجية الروسية في سانت بطرس بورغ.

وبدأت روسيا القيصرية منذ عام ١٨١٥م تسعى إلى فرض سياساتها على الدولة العثمانية، بعد ما فشلت دبلوماسيتها في الشرق العربي بسبب المعارضة الإنكليزية الفرنسية، والتفاف الدولتين على السياسات الروسية بالتعاون مع الدولة العثمانية. وحاولت روسيا تمرير دبلوماسيتها الجديدة مع الدولة العثمانية عن طريق استغلال الوضع المتفاقم في اليونان، وأقامت أول جمعية سرية يونانية أطلق عليها اسم جمعية الأصدقاء (فيليكيا هيتاريا)، أو جمعية هيتاريا العظمى التي اتخذت من موسكو مقراً لها، ووضعت هذه الجمعية لنفسها هدف إنقاذ الشعوب الهيلينية من الاحتلال العثماني، وإحياء الإمبراطورية الأرثوذكسية في الشرق. وقد تولى الجنرال هبسلنت وهو ضابط يوناني كان يعمل لدى القيصر الروسي ألكسندر الأول رئاسة الجمعية وطرح شعار ثورته المعروف (اليونان لليونانيين)^(٩).

بعد بدء الثورة اليونانية في آذار عام ١٨٢١م في بحري إيجة والأدرياتيك وكريت وقبرص، وفشل القوات العثمانية في القضاء عليها وإلحاق الهزيمة بها، من قبل القائد

اليوناني الشهير تيودور كول كوتروتز الملقب بـ(آكل الأتراك)، كلف السلطان العثماني محمود الثاني والي مصر محمد علي باشا بالقضاء على الثورة اليونانية على أن يعطيه حكم جزيرتي قبرص وكريت^(١٠).

لبى محمد علي باشا طلب السلطان العثماني، وأمر بتجهيز حملة عسكرية، تمكنت في حزيران عام ١٨٢٢م من القضاء على الثورة في كريت وقبرص وآل حكم كريت لمحمد علي باشا^(١١).

في ١٦ كانون الثاني عام ١٨٢٤م، وبعد استئصال أمر الثورة اليونانية في شبه جزيرة المورة والتي شارك فيها الكثير من المتطوعين الروس والبلغار، وكتب لها الشاعر الروسي العظيم ألكسندر بوشكين القصائد الحماسية، كلف السلطان محمود الثاني والي مصر محمد علي باشا مرة ثانية بالقضاء على الثورة، فأرسل حملة عسكرية بقيادة ابنه إبراهيم تمكنت من بسط سيطرتها على شبه الجزيرة بأكملها في حزيران عام ١٨٢٧م^(١٢). خلال فترة استئصال أمر الثورة اليونانية حاول ميترنيخ النمسة المعارض الرئيسي لهذه الثورة، والذي كان يرى بأنها ستكون السبب المباشر في انتشار حركة العصيان ونفسيها وسط السكان السلاف من النمستويين، قطع الطريق على روسية القيصرية التي بدت عازمة على التدخل إلى جانب الثوار ضد محمد علي والسلطان العثماني، وذلك عن طريق إقحام الدول العظمى الأخرى في هذه الحرب، وخصوصاً فرنسا وانكلترا في وقت كانت فيه فرنسا وانكلترا، تتخوفان من تقوية وزيادة النفوذ الروسي في البلقان، والذي يمكن أن يتبعه امتداد النفوذ الروسي إلى الشرق كما حدث في مطلع القرن التاسع عشر كما رأينا.

من ناحية ثانية، حاولت روسية القيصرية الرد على الدبلوماسية النمستوية والالتفاف عليها، فأقدمت في ٤ نيسان عام ١٨٢٦م على التوقيع مع انكلترا على اتفاقية سانت بطرس بورغ، التي طالبت فيها الدولتان السلطان العثماني ومحمد علي

باشا بوقف الحرب في اليونان ضد الثوار، وإعطاء اليونان استقلالها - سرعان ما انضمت فرنسا إلى هذه الاتفاقية. غير أن الدولة العثمانية رفضت تلك المطالب مستغلة اعتمادها على قوة محمد علي باشا وصداقته مع فرنسا ورفض النمسة ومعارضتها القوية بسبب تخوفها من امتداد الثورة إلى داخل الأراضي النمساوية^(١٣).

غير أن زيادة ضغوط الدول الغربية وخصوصاً فرنسا وانكلترا على الدولة العثمانية أدت إلى إقناعها بضرورة التفاوض مع روسيا القيصرية - والتوقيع في ٧ تشرين الأول عام ١٨٢٦م على اتفاقية، اعترفت فيها بحق صربية، وملدافية، والأفلاق، بالاستقلال. وبذلك رسخت أقدام روسيا في البلقان، وتعمق نفوذها السياسي فيه إلى حد كبير^(١٤).

في عام ١٨٢٧م، تقدمت روسيا القيصرية بمشروع لحل المشكلة اليونانية وافقت عليه فرنسا وانكلترا من خلال اتفاق وقع بين ممثلي هذه الدول في لندن في تموز عام ١٨٢٧م، طالبت فيه السلطان العثماني بمنح اليونان الاستقلال التام، وأذرته باستخدام القوة العسكرية ضده في حال رفضه ذلك. وتخوفت فرنسا وانكلترا من إمكانية التدخل العسكري الروسي المباشر في حرب اليونان، في وقت بدت فيه روسيا عازمة على ذلك، ومن عواقب ازدياد النفوذ الروسي في البلقان والامتداد نحو الولايات العثمانية الأخرى في شرقي البحر المتوسط (بلاد الشام)، فسارعت إلى إرسال أساطيلها العسكرية إلى المياه اليونانية، ودخلت في معركة بحرية مع القوات المصرية والعثمانية في ميناء نفارين، انتهت بتدمير الأسطولين المصري والعثماني وانسحاب القوات المصرية من شبه جزيرة المورة^(١٥). وفي لندن وبضغط من الدبلوماسية الروسية، وقعت فرنسا وانكلترا وروسيا، على اتفاقية في شباط عام ١٨٣٠م طالبت فيها هذه الدول الدولة العثمانية بمنح اليونان الاستقلال التام الذي حصلت بموجبه اليونان يوم ٢٩ آب ١٨٣٠م على الاستقلال. وقد كتب إنجلز بهذا الخصوص ما يلي: "من قرّر مصير الصراع أثناء الثورة اليونانية؟ لا الباشا محمد علي ومؤمراته،

ولا المعركة البحرية في ميناء نفارين، ولا الجيش الفرنسي في المورة، ولا اتفاقية لندن، والبروتوكول الملحق بها، بل إنما يعود الفضل في ذلك إلى الجيش الروسي الذي تجاوز البلقان، ووصل إلى أعماق مارييتسه^(١٦).

وأخيراً فقد أدى الانتصار العسكري الروسي على الدولة العثمانية في حرب عام ١٨٢٧ - ١٨٢٩م، التي كان سببها المباشر الحرب في اليونان، ثم انتصار الدبلوماسية الروسية في اليونان، وحصول اليونان على استقلالها، إلى إعادة تقييم سانت بطرس بورغ لدبلوماسيتها في الشرق. وبدأت منذ ذلك الحين مرحلة جديدة في الدبلوماسية الروسية، قامت على أساس التوغل نحو الجنوب خصوصاً، وأن الأوضاع الدولية كانت في صالح روسيا خلال تلك المرحلة كما سنرى.

٣ - الدبلوماسية الروسية أثناء حرب الشام الأولى ١٨٣١ - ١٨٣٣م:

ازداد اهتمام الدبلوماسية الروسية ببلاد الشام بشكل كبير خلال عامي ١٨٣١ - ١٨٣٢م، عندما قام محمد علي باشا بإرسال جيوشه والسيطرة على بلاد الشام بأكملها، حيث تمكنت هذه الجيوش من تحطيم القوة العسكرية للدولة العثمانية، وأصبحت القسطنطينية على وشك السقوط بيد القائد العسكري المصري الكبير إبراهيم باشا، في وقت لم تكن فيه الحكومة القبطية في سانت بطرس بورغ راغبة على الإطلاق بامتلاك حدود مع دولة محمد علي باشا القوية في الشرق، التي وصل تعداد جيشها آنذاك إلى حوالي ٢٠٠ ألف جندي. ومنهم القيصر نيقولا الأول، أن السلطان العثماني محمود الثاني لن يكون قادراً على مواجهة جيوش محمد علي عندما ستهاجم عاصمته، خصوصاً وأن انكلترا والنمسة رفضتا مساعدته والتدخل إلى جانبه. فسارع القيصر فور لجوء السلطان إليه طالباً المساعدة، إلى تلبية طلبه، وقام بإرسال مبعوثه الخاص الجنرال مورافيوف إلى القسطنطينية ثم إلى الإسكندرية في تشرين الأول علم ١٨٣٢م، بعد أن خولّه بصلاحيات تامة للتفاوض مع محمد علي باشا وتهديده بالتدخل

الروسي المباشر إلى جانب السلطان العثماني إذا وجد تعنتاً منه، أو إصراراً أو حتى التفكير بالقضاء على الدولة العثمانية وإقامة دولة جديدة على أنقاضها^(١٧).

عندما عبرت سفينة الجنرال الروسي مورافيوف المضائق حاملاً رد القيصر الإيجابي على طلب السلطان العثماني بالتدخل العسكري إلى جانبه، سارعت انكلترة وفرنسة إلى إرسال أساطيلها البحرية إلى شواطئ بلاد الشام تخوفاً من ازدياد الخطر الروسي من خلال التدخل العسكري المباشر في حرب بلاد الشام، لكن السلطان كان قد خسر المعركة الأخيرة في قونية، فتوجه في ٢ شباط ١٨٣٣م إلى السفير الروسي في القسطنطينية بوتنينيف وطلب منه إبلاغ القيصر بضرورة إرسال الأسطول العسكري الروسي في البحر الأسود، وفيلق مشاة مكون من ٢٥ - ٣٠ ألف جندي لحماية عاصمة الدولة العثمانية المهدة^(١٨).

في محاولة منه لإنقاذ الدولة العثمانية من الوضع الخطير الذي أصبحت فيه، أسرع الجنرال مورافيوف بالتوجه إلى الإسكندرية حاملاً اقتراحاً إلى محمد علي باشا ينص على تنازل السلطان عن جنوب بلاد الشام (فلسطين) لمحمد علي. غير أن الباشا رفض عرض مورافيوف وبدأ يستعد للإبحار مع أسطوله إلى القسطنطينية لملاقاة ابنه إبراهيم. لكن الجنرال مورافيوف نجح أخيراً بإقناع محمد علي باشا بقبول التفاوض مع السلطان العثماني، بعد أن هددته بأنه سيجد القوات الروسية في وجهه إذا فكر بالهجوم على القسطنطينية^(١٩). وبالفعل فقد دخلت القوات الروسية المضائق بقيادة العميد كومانفي في ٨ شباط ١٨٣٣م، ونزلت على البر الآسيوي في وادي هنكاراسكله سي مقابل السفارة الفرنسية في القسطنطينية. عندها حاولت فرنسة عن طريق سفيرها الجديد الأدميرال روسان إقناع الباب العالي برفض المساعدة العسكرية الروسية وهدد روسان بقطع العلاقات الدبلوماسية مع الدولة العثمانية في حال رفضها ذلك، وتعهده مقابل هذا بإقناع محمد علي باشا بالشروط التي يعرضها خليل باشا مبعوث السلطان العثماني إلى الإسكندرية. لكن روسية تابعت إرسال قواتها العسكرية إلى القسطنطينية

خلال شهري آذار ونيسان ١٨٣٣م، حيث تسلم الجنرال مورافيوف قيادتها العامة بعد عودته من مصر، في حين تولى الأميرال نزاريفوف قيادة الأسطول. وفي أيار ١٨٣٣م، وصل الجنرال الباور كونت أرلوف، وتسلم قيادة البحرية والمشاة، وأوكلت إليه مهمة قيادة القوات الروسية، وأعطى صلاحيات فوق العادة^(٢٠).

وفهم محمد علي باشا أبعاد اللعبة الروسية وأدرك خطورة وجود جيش روسي على البر الآسيوي، وصل تعداداه إلى ٣٢ ألف جندي، فدخل في مفاوضات مع مبعوث السلطان العثماني انتهت بالتوقيع على اتفاقية كوتاهية في ١٤ أيار ١٨٣٣م، اعترف بها السلطان العثماني بحكم محمد علي باشا لمصر والجزيرة العربية وكريت، ووضعت بلاد الشام وأضنة تحت حكم ابنه إبراهيم باشا. وبذلك تكون الدبلوماسية الروسية قد نجحت في إنقاذ الدولة العثمانية من السقوط في اللحظة الأخيرة تحت ضربات جيوش إبراهيم باشا^(٢١). وكان العامل المحرك لهذا السياسة في سعي روسية إلى زيادة وتعميق نفوذها في الشرق، بعد النجاح الكبير التي حققتها في البلقان وتحقيق أكبر قدر ممكن من "تسهييرت والإمتيازات في منطقة المضائق، وتحجيم النفوذ الفرنسي في بلاد الشام، خصوصاً وأن فرنسا كانت تؤيد سياسات محمد علي باشا، وكذلك قطع الطريق على انكلترا التي كانت تسعى إلى تعميق نفوذها في بلاد الشام عن طريق سياسة التقارب والتعاون التي كانت تتبعها مع الدولة العثمانية، خصوصاً وأن الدوائر السياسية الإنكليزية آنذاك، لم تكن تخفي نواياها في استخدام شمال بلاد الشام كقاعدة للوصول إلى منطقة ما وراء القفقاس الروسية.

ولم تنسحب القوات الروسية من منطقة المضائق إلا بعد أن تمكنت الدبلوماسية الروسية من التوقيع على معاهدة دفاعية هجومية مع الدولة العثمانية في ٨ تموز عام ١٨٣٣م، أصبحت تعرف باسم معاهدة هنكاراسكله سي، وأهم ما تضمنته التزام روسية والدولة العثمانية بانتهاج سياسة متوافقة وتقديم المساعدة المتبادلة عندما تدعو الضرورة إلى ذلك، من أجل ضمان الأمن والهدوء والاستقرار التام، وتعهدت روسية

القيصرية، بموجب نص المعاهدة بأن تقدّم للدولة العثمانية في صراعها ضدّ أعدائها المساعدات وكافة أشكال الدعم العسكري والسياسي، كما نصت المعاهدة أيضاً على بند سرّي أعفت بموجبه روسيا الدولة العثمانية من تقديم المساعدات العسكرية لروسيا، وعوضاً عن ذلك كان عليها إغلاق مضائق البوسفور والدردنيل في وجه السفن الحربية الأجنبية بناء على طلب روسيا، وبذلك أصبحت روسيا القيصريّة وبموجب هذه المعاهدة الحامية الرئيسية للدولة العثمانية خلال هذه الفترة^(٢٢).

في هذه الأثناء، قامت وزارة الخارجية الروسية بالحاق القناصل الروس وجميع العاملين في القنصليات الروسية في بلاد الشام (سورية - فلسطين - لبنان) بالقنصلية الروسية في الإسكندرية التي كان يديرها القنصل العام الغراف ميدم، وظل الوضع كذلك حتى بداية الحرب الثانية في بلاد الشام عام ١٨٣٩م كما سنرى^(٢٣).

بعد التوقيع على معاهدة هنكارأسكله سي بثلاثة أيام، غادرت القوات الروسية منطقة المضائق عائدة إلى روسيا، وبدأت الدبلوماسية الروسية تسعى إلى تعزيز موقفها وتكريس اتفاقية هنكارأسكله سي. وقد تمكنت آنذاك من التوقيع على اتفاقية مونتشنغراتز مع النمسة في ٨ أيلول عام ١٨٣٣م التي تضمنت تعهد الدولتين بالتنسيق والعمل المشترك لحل المسألة الشرقية، بالرغم من أن ميترنيخ النمسة لم يعط أهمية للمعاهدة بنفس القدر الذي أعطاه القيصر الروسي نيقولاي الأول، وفضل جعلها عامة وسريّة وبديلة عن معاهدة هنكارأسكله سي السالفة الذكر. وقد تضمنت البنود السرية في معاهدة مونتشنغراتز منع محمد علي باشا وبشكل مباشر من الامتداد نحو الولايات التابعة للدولة العثمانية^(٢٤).

حاول محمد علي باشا من جانبه الالتفاف على السياسات الروسية المعادية له في بلاد الشام وضربها بالسياسات الأوروبية في المنطقة، واقترح في عام ١٨٣٤م على النمسة وفرنسة فصل المقاطعات العربية بشكل نهائي عن الدولة العثمانية، وإعلان

الاستقلال في مصر وبلاد الشام والحجاز، وتشكيل دولة عربية واحدة، وإعلان الحرب على روسيا القيصرية لإلغاء معاهدة هنكارأسكله سي، غير أن الدول الكبرى هذه رفضت اقتراحه.

٤. اهتمام الدبلوماسية الروسية في بلاد الشام ودراسة أوضاعها من قبل ضباط هيئة أركان الجيش الروسي:

يعود تاريخ تأسيس هيئة الأركان العامة الروسية إلى عام ١٧٦٣م، وكانت مهمتها الأساسية دراسة مسرح الأعمال العسكرية، وإعداد طرائق تحرك القوات، والخرائط والخطط العسكرية. ولم تكن هيئة الأركان آنذاك الهيئة العسكرية العليا في البلاد، وكانت تقود أيضاً مجموعة من أصناف القوات خلال الحرب، وكان أعضاؤها من كبار الضباط الذين كانوا ينضمون إلى القطع العسكرية المحاربة من أجل القيام ببعض الأعمال العلمية والعسكرية.

في عام ١٧٩٦م، قام القيصر الروسي بافل الأول بإلغاء هيئة الأركان العامة، وأقام عوضاً عنها هيئة مستشاري القيصر الأعظم العسكرية، والتي أصبحت تعرف باسم هيئة الحاشية، واستمرت حتى عهد القيصر نيقولاي الأول، الذي قام بإلغائها وأعاد تأسيس هيئة الأركان العامة قبيل الدخول مع الدولة العثمانية في حرب عام ١٨٢٧ - ١٨٢٩م. فقد اتخذت الحرب في الشرق وعملية التحضير لها أهمية خاصة لدى القيصر نفسه، وكان على هيئة الأركان العامة الروسية الجديدة أن تحصل على كافة المعلومات المتعلقة بشعوب بلاد الشام، والتحويلات التي طرأت عليها، ومعرفة حضارتها وأوضاعها الاقتصادية، وعادات وتقاليد وطباع سكانها، الأمر الذي تطلب من ضباط هيئة الأركان هذه تعلم اللغة العربية ولغات الشرق الأخرى بشكل جيد. وفي سبيل ذلك، بدأت هيئة الأركان بإرسال البعثات الاستكشافية الروسية من الضباط بصورة رخالة، وجغرافيين وكانت مهمتهم الأساسية القيام بأعمال تجسسية، وجمع

كافة المعلومات الهامة والإستراتيجية عن بلاد الشام ومصر. ومنذ ذلك التاريخ تم تشكيل ثم تطوير ما أصبح يعرف باسم الاستشراق العسكري الروسي.

قبل بداية ثلاثينات القرن التاسع عشر، كانت مهمة ضباط هيئة الأركان الروسية منصبة بالدرجة الأولى على دراسة بلاد فارس والأراضي العثمانية المتاخمة لحدود روسيا الجنوبية، غير أن الهيئة وسعت من نشاطاتها وأبحاثها ودراساتها العسكرية والإستراتيجية بعد حرب ١٨٢٧ - ١٨٢٩م مع الدولة العثمانية، لتشمل أواسط آسية، وبلاد الشام بأكملها ومصر.

بدأت عمليات التجسس الروسية في المنطقة بشكل عملي عندما عينت هيئة الأركان الروسية العقيد ديوغاميل - وكان نفسه عضو في هيئة الأركان - في كانون الأول عام ١٨٣٢م نائباً للجنرال مورافيوف، أثناء تكليفه بمهمة التوسط بين السلطان العثماني، ومحمد علي باشا، وكلفت هيئة الأركان العقيد ديوغاميل أثناء توجهه من ميناء أوديسة على شواطئ البحر الأسود الروسية إلى القسطنطينية بجمع معلومات كافية عن وضع الحصون والقلاع العثمانية، والإجراءات التي اتخذتها الدولة العثمانية لإعادة بنائها بعد انتهاء الحرب مع روسيا في عام ١٨٢٩م. وبالفعل فقد تمكن ديوغاميل من جمع معلومات قيمة جداً عن وضع القوات البرية والبحرية العثمانية ساعدت الدبلوماسية الروسية إلى حد كبير في تقدير خطورة الوضع أثناء حرب الشلم الأولى، واتخاذ الإجراءات العسكرية الروسية السريعة لإنقاذ القسطنطينية من هجوم تقوم به جيوش محمد علي باشا والتي كانت احتمالات نجاحها مؤكدة^(٢٥).

واستغلت الدبلوماسية الروسية البند الأخير في معاهدة هنكارأسكله سي المتضمن: "أن تكون بلاد الشام مسرح العمليات العسكرية في حال وقوع حرب جديدة بين السلطان العثماني ومحمد علي باشا"^(٢٦).

وطرحت الحكومة القيصرية على هيئة الأركان الروسية العامة مسألة دراسة بلاد الشام كمنطقة مرشحة للتحويل إلى مسرح للعمليات العسكرية في المستقبل القريب. في

وقت هدأت فيه الأوضاع نسبياً في بلاد الشام، وراح محمد علي نائباً يعمل على توطيد دعائم حكمه فيها.

كلف هيئة الأركان الروسية في اب عام ١٨٣٣ الجنرال مورافيوف بتنفيذ هذه المهمة. عندها كلف مورافيوف بنوره نائبه العقيد ديوغاميل بمهمة تجسسية في بلاد الشام ومصر، وأمره بالتوجه إلى الإسكندرية عن طريق البر، وكان عليه أن يعرف تركيبة وتعداد وتسليح جيش محمد علي باشا في بلاد الشام، والاطلاع على الحالة النفسية للسكان العرب، ومدى تأييدهم لحكم محمد علي باشا وتقديم دراسة وافية عن الجيش في مصر نفسها، وكان على الجنرال مورافيوف تأمين حماية ديوغاميل وتأمين الغطاء والحصانة الدبلوماسية اللازمة له عند الضرورة^(٢٧).

خلال جولته في بلاد الشام ومصر، تمكن العقيد ديوغاميل من جمع المعلومات المطلوبة وأرسلها في تقرير مفصل إلى وزير الدفاع الروسي في سانت بطرس بورغ، دون العودة إلى الجنرال مورافيوف. وبعد الإطلاع على هذا التقرير، تبين لوزارة الدفاع أن مهمته لم تكن في المستوى المطلوب، على الرغم من حب ديوغاميل للعمل، وحنكته ومستوى ثقافته الكبير. والسبب في ذلك عائد إلى عدم تمكنه من كسب ثقة السكان، التي تعد شرطاً ضرورياً للحصول على المعلومات التي كلف بجمعها خلال تنفيذ مهمته التجسسية. بالإضافة إلى أن هذه المهمة كانت تتطلب جهداً عضلياً شاقاً، وتحملًا يفوق الحدود وكسب قلوب أبناء شعب الشرق العربي، الذي لم يعد يشق بالأجانب، ويرتاب من أي سؤال يطرح عليه، أو حتى من أي وجود للأجانب على هذه الأرض في تلك الفترة. وفي نهاية عام ١٨٣٣م قطع ديوغاميل مهمته في بلاد الشام ومصر واضطر للعودة إلى روسيا.

من جهة أخرى، كانت قوات الإنزال البحرية الروسية قد تركت أثناء انسحابها من منطقة المضائق، بعد التوقيع على اتفاقية هنكارأسكله سي بعض المجموعات من

الضباط الروس في القسطنطينية، كلفتهم هيئة الأركان الروسية العامة بالقيام برحلات استطلاعية بصفة رحالة وكشافين جغرافيين، والتوغل عبر أنطالية إلى بلاد الشام، وجمع المعلومات العسكرية الهامة عن المنطقة، حيث تمّ تكليف العقيد لفوف بهذه المهمة. وقد تمكن هذا الضابط من دراسة كاملة لسورية وفلسطين وأنطالية، ومناطق ديار بكر، ثم قدم تقريراً مفصلاً إلى هيئة الأركان العامة الروسية، التي قامت بدورها بدراسته^(٢٨). وفي عام ١٨٣٨، أرسلت هيئة الأركان النقيب دابنيزي في مهمة تجسسية أخرى إلى بلاد الشام، قدّم بعدها تقريراً خاصاً عن الأوضاع بشكل عام في بلاد الشام. غير أن المهمة الأهم والأنجح كانت مهمة العقيد لفوف. وفي أرشيف هيئة الأركان العسكرية الروسية العامة لعام ١٨٤٣م، يوجد مختصر التقرير الذي كان لفوف قد قدّمه عن مشاهداته، والمعلومات التي حصل عليها خلال مهمته السالفة الذكر في بلاد الشام، وتعدّ اقتراحاته المتعلقة بالطريقة التي يمكن فيها للقوات الروسية القليل بعمل عسكري لطرد القوات المصرية من بلاد الشام، من أهم ما تضمنه ملخص تقريره هذا. وفيما يلي نص هذه المقترحات: "من الممكن القيام بعمليات عسكرية ضد سورية من جهة الشمال عن طريق أنطالية، أو من جهة الشرق عن طريق بغداد، أو من جهة الغرب عن طريق إنزال القوات العسكرية الروسية على الشواطئ السورية".

ولخص لفوف كيفية تنفيذ هذه الاحتمالات الثلاثة على الشكل التالي:

أ- احتمال تنفيذ هجوم على القوات المصرية في بلاد الشام عن طريق أنطالية، لقطع الطريق على هذه القوات لأن أنطالية تشكل المنطقة الهامة التي يمكن عن طريقها إمداد القوات المصرية بالمؤن والعنّاد اللازم عن طريق البحر المتوسط، وفي حال نجاح القوات الروسية بالتعاون مع القوات العثمانية في السيطرة على أنطالية، يمكن للقوات الروسية أن تؤمن طريق الإمدادات اللازمة لها بالاعتماد على الأسطول الروسي عن طريق البحر الأبيض المتوسط. لكن تنفيذ مثل هذه الخطة سيكون صعباً للغاية ومكلفاً جداً، نظراً

لكثافة تواجد القوات المصرية في المنطقة وسيطرتها على مواقع عسكرية استراتيجية، تمكنها من اعتماد خطة دفاعية، يمكن أن تحول دون تحقيق نصر عسكري روسي عثماني على هذه القوات.

ب- الهجوم من جهة بغداد، وأعلى نهر الفرات، وذلك بالالتفاف على القوات المصرية المتواجدة بكثافة في شمال بلاد الشام، وخصوصاً في منطقة جبال طوروس وممراتها. ويمكن الاعتماد من خلال تنفيذ خطة الهجوم عن طريق بغداد على القوات المحلية والبدو وذلك بمهاجمة الجيش المصري من الشرق، لكن الوضع يتغير وينعكس سلباً على القوات العثمانية التي ستشارك روسية في هجومها، في حال وقوف البدو إلى جانب محمد علي باشا. يضاف إلى ذلك إنه لا يوجد هناك أية طريقة لإمداد هذه القوات بالمؤن اللازمة إلا بالاعتماد على السكان المحليين، لذلك فإن الهجوم عن طريق ولاية بغداد ممكن في حالة واحدة فقط، بحيث يكون هجوماً محدوداً تشارك فيه بعض القوات العثمانية لتقديم المساعدة للقوات الروسية التي ستهاجم بلاد الشام عن طريق جهة أخرى، والتنسيق الكامل مع قيادة الهجوم الرئيسية والاتفاق معها على تنفيذ خطة هجومية واحدة.

ج- الهجوم من جهة البحر: ويتم بإنزال القوات البحرية الروسية الخاصة على شواطئ سورية وفلسطين، على أن يسبق الإنزال عمليات قصف تمهيدية واسعة النطاق لتدمير التحصينات العسكرية التي أقيمت على هذه الشواطئ. لكن ومع ذلك، يجب اتخاذ كامل الاحتياطات العسكرية أثناء عملية إنزال القوات بسبب وجود تحصينات عسكرية أخرى منيعة في الجبال الغربية القريبة من الشواطئ، حيث تشكل هذه الجبال موقعاً دفاعياً متميزاً ضد أية عملية تهدف إلى التوغل نحو الداخل. بالإضافة إلى ذلك كله، فإن الإنزال

البحري يتطلب تأمين المؤن والإمدادات اللازمة للقوات بشكل مستمر عن طريق البحر، وتحقيق ذلك يتطلب إعداد وتجهيز أعداد كبيرة من سفن الشحن والنقل الروسية.

كما تضمن تقرير نفوف هذا في الخاتمة تصورات الخاصة عن إمكانية سيطرة القوات الروسية على سورية، في ظل كافة الاحتمالات المتوقعة. وأهم ما ورد في هذه الخاتمة ما يلي: "من الممكن السيطرة على كامل سورية خلال سبعة أو ثمانية أشهر، في حال موافقة السكان المحليين وتعاونهم مع القوات الروسية، وفي حال رفضهم ومقاومتهم ووقوفهم إلى جانب الجيش المصري، فإن الوضع سيتطلب وجود جيش روسي قوي وقادر على مواجهة الجيش المصري والسكان المحليين في آن واحد، وهذا يحتاج إلى فترة زمنية طويلة، وتكتيك حذر وسيكلف روسية خسائر مادية وبشرية هائلة. لذلك فإنه من الأفضل لنا التعاون مع بقية الدول العظمى الأخرى في هذه المسألة البالغة التعقيد"^(٢٨).

مع تطورات الأحداث في بلاد الشام بشكل سريع خلال عام ١٨٣٨ وبداية عام ١٨٣٩م، أرسلت هيئة الأركان الروسية مجموعات من بعثات الاستطلاع والتجسس إلى بلاد الشام، جمعت معلومات سياسية وعسكرية واقتصادية وثقافية، ومعلومات أخرى عن كامل الولايات السورية، في حين تمكنت مجموعات استطلاع خاصة من الإطلاع على الحالة النفسية للسكان المحليين وموقفهم من حكم محمد علي باشا، ومدى إمكانية وقوفهم إلى جانبه أو إلى جانب السلطان العثماني والدول العظمى، وأوضاع طرق المواصلات والقلاع والحصون. لكن أهم ما حصلت عليه القيادة العسكرية الروسية آنذاك، كان ما يتعلق بوضع القوات العسكرية المصرية في بلاد الشام، والطرق الملاحية وفاعلية وتأثير الجمعيات والمؤسسات الدينية في هذه البلاد.

٥. الدبلوماسية الروسية أثناء حرب الشام الثانية ١٨٣٩ - ١٨٤١:

قبل البدء بدراسة الدبلوماسية الروسية في هذه الفترة، لا بد من الإشارة إلى أن المرحلة الممتدة بين عامي ١٨٣٤ - ١٨٣٨م كانت قد شهدت نشاطات دبلوماسية بين القاهرة والقسطنطينية، حاول خلالها محمد علي باشا تثبيت شروط معاهدة كوتاهية الهشة مع الدولة العثمانية، خصوصاً وأنه كان يفهم أكثر من غيره أن هذه المعاهدة لا تشكل أكثر من هدنة، يمكن أن تنتهي في أي وقت باستعادة ما أخذه بالقوة من أراضٍ، كان السلطان العثماني يعدّها جزءاً هاماً من امبراطوريته. أدى فشل المساعي الدبلوماسية بين محمد علي والسلطان العثماني إلى تغيير في التكتيك المصري في تعامله مع الأحداث. وبدأ محمد علي باشا ببناء التحصينات العسكرية القوية في أودية طوروس بإشراف مهندسين فرنسيين، ونصب فيها ٢٥٠ مدفعاً، وكلفته ملايين القروش، كما أمر ابنه إبراهيم بتحصين الثغور البحرية على امتداد شواطئ بلاد الشام وخصوصاً إعادة تحصين قلعة عكا الشهيرة استعداداً لحرب وشيكة الوقوع مع الدولة العثمانية، دعت إليها جملة من المتغيرات في المواقف الدولية، لم تكن في محصلتها في صالح محمد علي باشا^(٢٩).

في عام ١٨٣٨م، كان السلطان العثماني محمود الثاني قد تمكن من القضاء على ثورة الأكراد في شرق الأناضول، وأجبر القبائل الجبلية على الخضوع للتجنيد الإلزامي، وانتهى من إعادة بناء جيش قوي، وبنى أسطولاً حريباً قوياً بإشراف الكابتن الإنكليزي ووكر بودين، مستشار قبودان باشا الذي تولى بنفسه مهمة تأمين السلاح اللازم لتسليح هذه الأسطول^(٣٠). وسارعت الدبلوماسية الروسية إلى الإعلان عن عزمها على مساعدة السلطان العثماني ضد محمد علي بالتعاون مع الدول العظمى، بعد أن تبين لها من خلال التقارير التي قدمها جواسيسها في الشرق، عجزها عن القيام بمفردها بعمل عسكري ضد محمد علي في بلاد الشام، فاتفقت مع انكلترا على ذلك

في حين قام الإنكليز بتسليح الجيش العثماني والأسطول البحري بأحدث الأسلحة استعداداً للمعركة القادمة.

من جانبها قامت الدولة العثمانية بتنفيذ خطة عسكرية اعتمدت على تجنب الاشتباك مع القوات المصرية في شمال غرب بلاد الشام وأودية طوروس المحصنة بناء على نصيحة تقدمت بها الحكومة الروسية، وقامت الخطة على أن تلتف القوات العثمانية على الجيوش المصرية عن طريق ديار بكر، والنزول باتجاه الفرات ومهاجمة مدينة حلب. ونزلت القوات العثمانية بقيادة حافظ باشا على الضفة اليسرى لنهر الفرات وتحصنت في بيرجك، ثم عبرت النهر وتحصنت في نزيب.

وفهم محمد علي باشا من خلال البيانات الحازمة التي بدأت تصدر عن الدول العظمى، أنه لم يعد باستصعته التحكم بأمور الشرق بالشكل الذي يريد كما كان عليه الوضع عام ١٨٣٢ - ١٨٣٣ م. فصدر أوامره إلى ابنه إبراهيم بالاكتماء بمهاجمة القوات العثمانية، والسيطرة على المناطق المتاخمة لحدود بلاد الشام خوفاً من حواء روسية إلى تطبيق معاهدة هنكارأسكله سي، وظهور الأسطول الروسي مرة ثانية في منطقة المضائق^(٣١). وفي نزيب تمكنت القوات المصرية من تحطيم الجيش العثماني، واندفعت البقية الباقية منه نحو ملاطية وأنقرة، في حين اندفع إبراهيم باشا نحو مرعش عملاً بنصيحة فرنسة التي طلبت منه أن لا يعبر جبال طوروس. من ناحية أخرى، تمكن لالاند قائد الأسطول الفرنسي الذي كان يجوب البحر المتوسط عند تيفوس، من إقناع قبودان باشا قائد الأسطول العثماني وهو في طريقه إلى بلاد الشام بالإبحار إلى الإسكندرية وتسليم الأسطول لمحمد علي باشا.

وبخوفت الدول العظمى وخصوصاً روسية القيصرية من الانتصار الساحق الذي حققه محمد علي باشا على الدولة العثمانية، وفهمت أن مضائق البوسفور والدرديسل أصبحت مهددة مرة أخرى، ويمكن أن تقع في القبضة الحديدية للشيخ الهرم، والذي

سيضع بذلك نهاية للتدخل العسكري الروسي. ونشطت الدبلوماسية الروسية في أوروبة بشكل كبير للحيلولة دون قيام دولة قوية على حدودها الجنوبية، يمكن أن تشكل مصدر خطر حقيقي على أطماعها التوسعية نحو الجنوب والبلقان، وتعيد فتح صفحات جديدة من تاريخ الصراع المرير الذي عاشته روسيا مع الدولة العثمانية، عندما كانت الأخيرة في أوج عظمتها وقوتها.

من جهة ثانية، بدأت الدول الأوروبية العظمى الأخرى تتخوف بشكل حقيقي من إمكانية انتهاج روسيا سياسة مشابهة للسياسة التي اتبعتها عام ١٨٣٣م، وتعتمد إلى إنزال القوات العسكرية في منطقة المضائق، مطبقة نصوص معاهدة هنكارأسكله سي. فسارعت تلك الدول إلى تبادل التأكيدات فيما بينها بالحفاظ على الدولة العثمانية، حتى لو تطلب ذلك استخدام القوة العسكرية ضد محمد علي باشا في بلاد الشام. وكانت هذه أيضاً إشارة واضحة إلى وقوف هذه الدول في وجه روسيا القيصرية، إذا فكرت في استخدام القوة العسكرية، والنزول ثانية في منطقة المضائق، وضد محمد علي إذا فكر بمتابعة هجومه نحو القسطنطينية، وبايحاء من ميترنيخ النمسة، للحيلولة دون وقوع تدخل أحادي الجانب من قبل روسيا، وإلجاء فرنسا على التنسيق مع بقية الدول الأوروبية الأخرى، أرسلت خمس دول أوروبية (انكلترة، روسيا، بروسيا، النمسة، فرنسا) مذكرة إلى الباب العالي في ٢٧ تموز عام ١٨٣٩م، تطلب فيها من السلطان العثماني أن لا يتخذ أية تدابير حاسمة أو يجري مفاوضات مع محمد علي باشا دون العودة إلى هذه الدول^(٣٢).

في هذه الأثناء، كان الأسطولان الفرنسي والإنكليزي يقفان أمام شواطئ الدردنيل، ويلحان على ضرورة الدخول إلى القسطنطينية وذلك للحيلولة دون إنزال قوات الأسطول الروسي فيها. وبالفعل فإن تواجد هذين الأسطولين دفع روسيا إلى العدول عن التفكير بالتدخل وتطبيق معاهدة هنكارأسكله سي، وبعد أن فهِمت الحكومة الروسية أن تدخلها العسكري سيجبرها إلى مواجهة عسكرية مع الدول الأوروبية

الأخرى. خصوصاً وأنها كانت قد فهمت جيداً بأن الظروف الدولية تختلف إلى حد كبير عن مثيلاتها عام ١٨٣٢ - ١٨٣٣م.

لكن إبراهيم باشا أيضاً كان قد توقف هذه المرة على بعد أيام من القسطنطينية، وبالتالي قطع الطريق على الدول الأوروبية العظمى من جهة، وروسية القيصرية من جهة أخرى، في إيجاد المبررات اللازمة للتدخل العسكري المباشر في القسطنطينية نفسها، ووضع الدول الأوروبية في موقف محرج للغاية. فسارعت الدبلوماسية الإنكليزية بزعامة بالمرستون وزير الخارجية آنذاك، إلى وضع مشروع لحل سلمي للمسألة السورية، طُرح على الدول الأوروبية الأخرى، وهذا المشروع يقوم على إعطاء محمد علي باشا حق الحكم الوراثي في مصر، بالإضافة إلى جنوب سورية (فلسطين) مدى الحياة. غير أن محمد علي رفض المشروع الإنكليزي بدعم وتحريض فرنسا، فدعت انكلترا الدول الأوروبية العظمى لعقد مؤتمر للبحث في طرائق حل المسألة السورية، بالشكل الذي يخدم مصالحها وتطلعاتها الاستعمارية^(٣٢).

في ربيع عام ١٨٤٠م، بدأت المحادثات بين مبعوثي روسية وانكلترا وبروسية والنمسة وفرنسة في لندن، في وقت بدأت فيه عملية تحريض واسعة النطاق للسكان المحليين في بلاد الشام للثورة ضد حكم محمد علي باشا، وجرت عملية توزيع السلاح على السكان المحليين خصوصاً في سواحل لبنان، وانتشرت شائعات تفيد بأن روسية القيصرية أرسلت فيلقاً عسكرياً مؤلفاً من ٥٠ ألف جندي يعبر أرض روم لطرده القوات المصرية من بلاد الشام. وفي ١٥ حزيران عام ١٨٤٠م، وقعت روسية والنمسة وبروسية وانكلترا والدولة العثمانية على معاهدة لندن الشهيرة، التي نصت على أن تقوم أساطيلها العسكرية باحتلال منطقة المضائق والنزول في القسطنطينية بحجة تخوفها من مهاجمة قوات إبراهيم باشا لها، في وقت كان فيه فيلق من الجيش الروسي جاهزاً للتوجه من أوديسة وسيباستوبل لمواجهة جيش إبراهيم باشا في بلاد الشام^(٣٣).

وكان همّ انكلترة الأعظم، تجنب مشاركة روسية العسكرية في المنطقة، فتولت بنفسها مسؤولية قيادة عملية عسكرية أنزلت خلالها القوات البحرية الإنكليزية والنمساوية بالإضافة إلى قوات الدولة العثمانية على شواطئ بلاد الشام في بيروت وصور وصيدا. عندها فضل محمد علي عدم مواجهة الدول العظمى التي اتفقت حول مسألة القضاء على دولته، وأصدر الأوامر إلى ابنه إبراهيم بتجميع قواته في دمشق، والانسحاب إلى مصر^(٣٥).

بعد القضاء على آمال محمد علي باشا في بلاد الشام، أصبحت المهمة الأساسية للدبلوماسية الإنكليزية في الشرق تحجيم النفوذ الروسي في الدولة العثمانية. فدعت انكلترة الدول العظمى إلى عقد اجتماع لها في لندن، وعقد اتفاقية حول المضائق شاركت فيه انكلترة وروسية القيصرية والدولة العثمانية ومحمد علي باشا، وجاء مضمون الاتفاق موجهاً ضد روسية القيصرية، حيث حرّم على القوات الأجنبية عبور منطقة المضائق خلال أوقات السلم، وحصر مسألة السماح لهذه القوات بالعبور خلال أوقات الحرب بالسلطان العثماني^(٣٦). وبذلك فقدت روسية إمكانية حل مشكلة الأمن على حدودها الجنوبية بمفردها، وخسرت كافة الامتيازات التي كانت قد حصلت عليها بموجب اتفاقية هنكار أسكله سي، في وقت ازداد فيه النفوذ الإنكليزي في الدولة العثمانية، وفي بلاد الشام إلى حد كبير.

كان القيصر الروسي نيقولا الأول قد وضع في حساباته أثناء موافقته على اتفاقية المضائق في لندن، أن انكلترة ستوافق مقابل ذلك على عقد اتفاقية ثنائية مع روسية وانكلترة حصراً. غير أن الحكومة الإنكليزية ناقشت مضمون أفكار القيصر ومقترحاته في لقاءات غير رسمية عديدة مع الجانب الروسي، ورفضت أخيراً هذه الاقتراحات، خوفاً من ازدياد النفوذ الروسي في بلاد الشام، واحتلال عاصمة الدولة العثمانية.

٦ - الدبلوماسية الروسية في بلاد الشام خلال الحرب الأهلية اللبنانية (١٨٤١ - ١٨٤٥):

انعكست دبلوماسية سانت بطرس بورغ الفاشلة على دبلوماسيتها في بلاد الشام خلال المرحلة اللاحقة، واقتصرت النشاط الدبلوماسي الروسي في المنطقة فقط على جمع المعلومات الاقتصادية، والسياسية الهامة، التي جمعت بشكل بطيء عن المنطقة خلال فترة الهدوء التي سادتها. لكن المنطقة عرفت مجموعة من الدبلوماسيين الروس الناشطين كان أهمهم وأفضلهم القنصل الروسي العام في بيروت وفلسطين قسطنطين ميخائيلوفتش بازيللي^(٣٧).

بدأ بازيللي نشاطه الدبلوماسي في بلاد الشام عندما عين في عام ١٨٣٨م قنصلاً لروسية في يافا، وذلك بعد أن أعادت روسية فتح قنصلياتها في بلاد الشام، قبيل حرب الشام الثانية. وطُلب من بازيللي التعرف على القنصل الروسي العام في الاسكندرية - الخراف ميدم والعمل بأمرته. وخلال فترة حبره - ح في - سكرته - انوصرتي - حوصي يقضي بفتح قنصلية روسية جديدة في بلاد الشام، وتقرر نقل مقرها من يافا إلى بيروت، التي كانت تُعد في ذلك الحين المركز التجاري والسياسي لبلاد الشام، ومركزاً لتواجد القنصليات الأوروبية^(٣٨).

في العشرين من تشرين الثاني عام ١٨٣٩م، وصل بازيللي إلى بيروت وتسلم مهامه كقنصل عام في بيروت وفلسطين، وفي عام ١٨٤٣م قامت وزارة الخارجية الروسية بتحويل قنصلية بيروت إلى قنصلية مركزية في بلاد الشام. وأصبح بازيللي القنصل العام فيها.

نتج عن عملية انتقال القنصلية الروسية إلى بيروت وجعلها قنصلية مركزية افتتاح عهد جديد في السياسة الروسية في بلاد الشام، كانت المهمة الأساسية فيه السعي لإعادة تنشيط الدبلوماسية الروسية، بعد الضربة التي وجهت لها من قبل انكلترا، كما

رأينا خلال عام ١٨٤١م، وكلفت وزارة الخارجية الروسية. القنصل العام بازيللي بإنشاء مراكز للحجاج الروس إلى بيت المقدس، وأولكت إليه مهمة حماية هؤلاء الحجاج بعد وصولهم إلى شواطئ مدينة يافا، وأمرته بإعداد الأمانة اللازمة لاستقبالهم في إحدى الأماكن التابعة للكنيسة الروسية، وعلى اعتبار أن مسألة الإشراف على الأماكن المقدسة الخاصة بالكنيسة الأرثوذكسية الشرقية، والاهتمام بها كانت تقع على عاتق روسية القيصرية، فقد تلقى بازيللي أمراً بالإشراف على هذه الأماكن واتباع ما يلي:

١- إعلام سفارة روسية في القسطنطينية فوراً عن كافة التجاوزات والخروق التي يمكن أن تحصل أو تقع ضد الروم الأرثوذكس، والأماكن المقدسة التابعة لهم في بيت المقدس بشكل خاص، وفي بلاد الشام بشكل عام.

٢- إعلام السفارة الروسية في القسطنطينية، وكذلك القنصل الروسي في الإسكندرية، بأوامر السلطان العثماني التي تتناول السكان المسيحيين الروم الأرثوذكس ورجال الدين الأرثوذكس.

٣- إخبار الحكومة القيصرية فوراً عن كافة الخلافات والمشاكل التي يمكن أن تحصل بين الكنائس المسيحية في بلاد الشام.

٤- دعم وتأييد كافة المطالب العادلة والقانونية للسكان الأرثوذكس لدى الحكومة في بلاد الشام^(٣٩). وبذلك تكون حكومة روسية القيصرية قد أخذت على عاتقها مسألة حماية الطائفة الأرثوذكسية في بلاد الشام، وجعلت من هذه المسألة السبب المباشر لتدخلها في بلاد الشام، بعد أن عجزت عن تنفيذ سياساتها، كما رأينا بسبب معارضة انكلترا والدول الغربية الأخرى لها في حرب الشام الثانية. وقد جاءت هذه السياسة من قبل سانت بطرس بورغ، كرد على زيادة نفوذ الكنائس الكاثوليكية والبروتستانتية في بلاد الشام، من خلال البعثات

التبشيرية الفرنسية والإنكليزية والأمريكية فيها. بعد عام ١٨٤١م، حاولت القنصليات الروسية في بلاد الشام إثر عودة السيطرة العثمانية عليها، استغلال بعض الخلافات التي وقعت بين المسيحيين والمسلمين بتحريض من الدول الأوروبية، ولجوء جماعات من المسيحيين للاحتماء بالعلم الروسي من أجل تعميق سياساتها من جديد في المنطقة، وبررت روسية تدخلها السياسي إلى جانب المسيحيين، بأن السلطنة العثمانية كانت السبابة إلى طلب المساعدة من القنصليات الأوروبية الأخرى، وبالتالي فمن حقها حماية الطائفة الأرثوذكسية داخل الإمبراطورية العثمانية.

وتحولت سواحل بلاد الشام بشكل عام، ولبنان بشكل خاص، إلى ساحة تتنافس فيها وتتصارع التيارات المسيحية المختلفة. رجال الكهنوت الخائف من نوايا التبشير البروتستانتية الإنكليزية، والبروتستانتية التي أخذت تبحث لنفسها عن مكان وسط إحدى الطوائف التي يمكن أن تتقبل أفكارها.

في هذه المرحلة، أخذ الموارنة يعيدون إلى أنفسهم الفضل في طرد قوات إبراهيم باشا من بلاد الشام، وراحوا يتزينون بالسلاح الموزع عليهم من قبل الحلفاء، في وقت لطّخت فيه المفارز العسكرية العثمانية المنطقة بكل أنواع المساوئ والممارسات القبيحة على عاداتها المألوفة. وبدأت دسائس المبشرين، الذين كانوا قد حلّوا في بيروت وأخذوا يبنّون بذور الفرقة والخلاف بين الكنائس المسيحية على أرض لبنان، ومناطق بلاد الشام الأخرى، واجتذاب الناشئة إلى مدارسهم. لكن الوضع اتخذ منحى آخر بعد خروج القوات الإنكليزية من الشواطئ السورية بعد عام ١٨٤١، وبقاء سرية إنزال في بيروت، خرج منها ثلاثون ضابطاً في كل الاتجاهات لإعداد دراسة وافية عن بلاد الشام وتقديمها إلى حكومتهم في لندن، وراحوا يبذلون كل جهد للقضاء على النفوذ الفرنسي القائم على إخلاص الموارنة العجيب لهم، في وقت تابع فيه عملاء فرنسة لعب دورهم، وممارسة ألاعيبهم، في تأجيج التعصب الديني لدى الكاثوليك. فأمر

نطريك الماروني بحرق المبشرين البروتستانتين والكتب الصادرة عنهم باللغة العربية في - هـ ت (٤٠).

ساعدت المجاعة التي - نها لبنان عام ١٨٤١م الفرنسيين على تكريس نفوذهم لدى المسيحيين الموارنة، الأصدقاء النفيسين لفرنسة، من خلال توزيع الغذاء المجاني الذي قدمته فرنسة لهم وزادت من حقد الموارنة على الدولة العثمانية، والإنكليز على حد سواء. في حين أخذ الدروز في هذه المرحلة يسعون من خلال أيديهم للدولة العثمانية، إلى إعادة السيطرة على المسيحيين، من خلال النظام الإقطاعي، وفسرصر الضرائب عليهم، مستغلين وجود كميات كبيرة من السلاح في أيديهم، كانت الدول المتحالفة قد وزعتها عليهم لمقاومة جيش إبراهيم باشا أثناء حرب الشام الثانية، وأخذوا يبحثون عن سند خارجي يعتمدون عليه في الوصول إلى تحقيق هدفهم هذا^(٤١).

في هذه الأثناء كانت انكلترة قد انتهت من إنشاء مركز ديني بروتستانتي في بيت المقدس، فأخذ الدروز يكشفون عن ميل نحو المبشرين البروتستانتين، وأعربوا عن استعدادهم لمساعدة المبشرين البروتستانتين في الجبال اللبنانية، الأمر الذي أدى إلى حدوث بعض الاحتكاكات بين الموارنة والدروز. لكن الوجه الحقيقي للمسألة، كان يعود بالدرجة الأولى إلى التنافس الاستعماري الإنكليزي الفرنسي على لبنان وبلاد الشام بأكملها.

مع ازدياد التنافس الفرنسي الإنكليزي، بدأت الاشتباكات المسنحة بين - ر - والموارنة في بلدة دير القمر، وتحرك موارنة الشمال نحو بلدة الشويفات التي يفظه الدروز، بالإضافة إلى الأرثوذكس الذين قرروا عدم الاشتراك في الحرب بأي شكل من الأشكال، فأقسم الموارنة في فورة تعصبهم الديني الأعمى، على إباحة كنيسة سيده الشويفات، مجبرين بذلك الأرثوذكس إلى الدخول في هذه الحرب الهوجاء.

أخذت الحرب الطائفية في جبل لبنان اتجاهاً أكثر تفاقمًا وخطورة، عندما كان القائد الدرزي شبلي العريان المعروف باسم سيف الدين يتجه نحو رحلة، بعد أن انضمت إليه مجموعات من المقاتلين في منطقة وادي التيم، راسماً طريقه في وادي البقاع، بجثث المسيحيين المقطعة الرؤوس. فسارع القنصل الروسي العام في بيروت بازيلي إلى إرسال تقرير إلى وزارة الخارجية الروسية في سانت بطرس بورغ، يخبرها فيه بالأسباب الحقيقية لهذه الحرب والجهات الخارجية التي تقف وراءها ثم قام بوضع خطة سياسية لإنهاء هذا الخلاف ومصالحة الطائفتين، وقد تضمن تقريره الأسباب التالية:

- ١- تأمر السلطات العثمانية التي عادت تتحكم من جديد في بلاد الشام، وتستترها على الكنيسة المارونية، ورضاها التام على اقتتال القوى المعارضة لها في بلاد الشام طالما أن ذلك سيؤدي في النهاية إلى إضعاف هذه القوى وزيادة الهيمنة العثمانية على المنطقة.
- ٢- الشائعات المغرضة التي بثها المبشرون الفرنسيون وسط الطائفة المارونية والكنهنة. ومحاولات فرنسا الاعتماد على الموارنة في الحفاظ على نفوذهم في بلاد الشام بعد القضاء على دولة حليفهم محمد علي باشا.
- ٣- تأييد فرنسا والنمسة الكبير للموارنة، وتقديم كافة أشكال الدعم اللازمة الاقتصادية والعسكرية والسياسية لهم.
- ٤- تأييد انكلترا وبعض الجهات الأخرى، للدروز وتقديم المساعدات العسكرية والاقتصادية، ودعم موقفهم لدى الدولة العثمانية^(٤٢).

بعد وصول هذا التقرير إلى سانت بطرس بورغ، كلفت وزارة الخارجية الروسية بازيلي بالتدخل والعمل على وقف هذه الحرب. وقد وصلته هذه الأوامر بينما كان يتفاوض في دمشق مع السلطات العثمانية من أجل حماية المسيحيين، في حال امتداد

هذه الحرب إليها. فتوجه وبرفقته مفرزة من الخيالة إلى زحلة، وظهر بشكل مفاجئ في معسكر شبلي العريان وأجبره على عقد اتفاق مصالحة، والتراجع عن مدينة زحلة، وأصرّ على ضرورة تعيين زعيم مسلم على لبنان، على أن يكون من غير اللبنانيين. وفي سبيل ضمان سلامة سكان زحلة من المسيحيين الأرثوذكس وبمسعى من بازيلي نفسه، جهز الأمير خنجر حروفش من بعلبك، فصيلة من المتطوعين للدفاع عن زحلة في حال الهجوم عليها مرة ثانية^(٣).

بعد ذلك توجه بازيلي إلى بيروت، واجتمع مع قناصل فرنسا والنمسة وبروسية وانكلترة في ٨ تشرين الأول للبحث عن حل للأزمة اللبنانية، وبعث بنداء إلى الباشا العثماني في دمشق سليم باشا طائبا منه التحرك على رأس مفرزتين من قواته إلى الجبال اللبنانية. إلا أنه رفض ولم تدخل القوات العثمانية هذه الجبال، إلا بعد أن تمكن الدروز من السيطرة على المناطق الجنوبية من لبنان. عندها دخلت القوات العثمانية بلدة دير القمر واستقبلها المسيحيون كمنقذة لهم، وعينت السلطات العثمانية حاكم مارونيا على المواردة هو حيدر أبي اللع، والأمير أحمد أرسلان حاكماً على الدروز في الجبل، بعد وصول المساعدات الاقتصادية الجديدة إلى المواردة من النمسة، التي وظفها الكهنوت الماروني لشراء السلاح، وتولت اللجنة السرية في دير القمر تغطية هذا الأمر. عادت الحرب الأهلية من جديد إلى الجبال اللبنانية عام ١٨٤٥م فتدخلت الدول الأوروبية وتمكنت من إنهاؤها بالاتفاق مع الدولة العثمانية بعيداً عن روسيا. والدبلوماسية الروسية في هذه المرحلة.

خلال هذه المرحلة، أقام بازيلي علاقات طيبة مع زعيم الكنيسة الأرثوذكسية في بيت المقدس. حيث قاما بجمع كافة المخطوطات العربية المتعلقة بالعقيدة الأرثوذكسية. في نفس الوقت الذي كان فيه بازيلي يتابع مهمته الدبلوماسية، جمع معلومات هامة جداً عن بلاد والأوضاع الاقتصادية فيها من تجارة وزراعة وصناعة، بالإضافة إلى طبيعة المجتمعات الدينية فيها وحالة القوات العثمانية فيها. وكانت وزارة الخارجية

الروسية تتسلّم منه بشكل منتظم تقارير حول الأوضاع السياسية والاقتصادية وأشياء أخرى، وفيما يلي أهم التقارير التي بعثها بازييلي:

- ١- تقرير خاص ومختصر عن التجارة الخارجية في بلاد الشام عام ١٨٤١م
- ٢- إحصاءات تتعلق بالطوائف الدينية في بلاد الشام واتجاهاتها عام ١٨٤١م
- ٣- أفضل التجارب الدينية والروحية في بلاد الشام ١٨٤٢م
- ٤- العلاقات التاريخية والسياسية لبلاد الشام تحت الحكم العثماني ١٨٤٨م^(٤٤).

٧. البعثة الروسية إلى بيت المقدس ومشكلة مفاتيح بيت لحم المجلس الفلسطيني. لجنة الخارجية الروسية.

بعد حرب الشام الثانية، والفشل الكبير الذي منيت به الدبلوماسية الروسية، ونجاح الدول العظمى وخصوصاً انكلترا، في إبعاد روسية القيصريّة عن المشاركة الفعالة في حل المشاكل السياسية العالقة في الشرق، قررت الحكومة القيصريّة تغيير أسلوبها في التعامل مع قضايا المنطقة، واعتماد الطريقة التي سلكتها الدول الأوروبية الأخرى، وذلك بالاعتماد من جانبها على البعثات التبشيرية الأرثوذكسية، وتفعيل دور الكنسية الروسية في الأرض المقدسة.

في عام ١٨٤٣م، أرسلت الكنيسة الروسية المقدسة المطران بارفيري أوسبينسكي بشكل سرّي إلى بيت المقدس، تحت ستار أداء فريضة الحج، وكلفته بمهمة سرية تتعلق بعمل الكنيسة الأرثوذكسية في بيت المقدس، وبعد وصول بارفيري إلى بيت المقدس، عادت الكنيسة الروسية وكلفته بمهمة التوجه إلى دمشق والالتقاء مع بطريرك إنطاكية وسائر المشرق للروم الأرثوذكس، حيث طلب إليه البطريرك إبلاغ مجلس السينود المقدس في سانت بطرس بورغ، بضرورة إنشاء المدارس الأرثوذكسية في دمشق وبيروت واللاذقية وحمص وإنطاكية وأضنة، على أن يتعهد المسيحيون

الأرثوذكس المحليون مسألة إقامة الأبنية اللازمة لذلك، بتمويل من حكومة روسية القيصريّة. وافقت الحكومة الروسية على اقتراح البطريرك بعدما نقله بارفيري إليها، وسمحت لمندوب بطريركية إنطاكية وسائر المشرق بالتوجه إلى روسية القيصريّة، وجمع التبرعات لصالح البطريركية التي اتخذت من دمشق مقراً لها^(٤٥).

كانت أولى المشاريع التي نتجت عن التعاون الروسي مع بطريركية إنطاكية وسائر المشرق، افتتاح مدرسة للذكور في عام ١٨٤٦م في دمشق، دُرست فيها اللغات العربية واليونانية والعثمانية والإيطالية والروسية. وعلم اللاهوت المسيحي الأرثوذكسي، وتمت تغطية نفقاتها من قبل الحكومة الروسية، والتبرعات التي جمعت في روسية. ثم افتتحت مدارس أخرى في وقت لاحق في العديد من مدن بلاد الشام، وأصبحت تطبع الأدبيات الأرثوذكسية^(٤٦).

في مطلع عام ١٨٤٧م، وبعد ثلاثة أعوام قضاهما متجولاً في بلاد الشام، أرسل بارفيري تقريراً إلى البطريركية الأرثوذكسية الروسية، وطلب فيه إرسال بعثة روحية روسية دائمة إلى بيت المقدس، تتولى مسألة خدمة المصالح الروسية في بلاد الشام، والدفاع عن حقوق الحجاج الروس. والإشراف على كافة الكنائس والمعابد الأرثوذكسية في الأرض المقدسة (فلسطين)^(٤٧).

بناء على تقرير بارفيري هذا، أمرت البطريركية الأرثوذكسية الروسية بتشكيل البعثة الروحية الروسية إلى بيت المقدس، ووصل أعضاؤها إلى القدس في ١٧ شباط عام ١٨٤٧م، وتكونت من المطران بارفيري نفسه رئيساً وعضوية الراهب غوفاروف، والتلميذين كريلوف وصيلافيوف.

بدأت البعثة الروحية الروسية ممارسة نشاطاتها المختلفة في أنحاء بلاد الشام، وقام المطران بارفيري في عام ١٨٤٨م بنقل اقتراح تقدم به الرحالان الروسيان نورف ومورافيوف أثناء زيارتهما للأرض المقدسة يقضي بإنشاء مجلس عموم روسية غير

الحكومي لدعم الأرثوذكس والأرثوذكسية في بلاد الشام إلى البطريركية الروسية في سانت بطرس بورغ. غير أن وزارة الخارجية الروسية في الأرض المقدسة تخوفت من أن يحدث مثل هذا الاقتراح نوع من الخلط، والتناقض في الدبلوماسية الروسية في الأرض المقدسة، وبالتالي فقد نصح القيصر نيقولاوي الأول البطريركية، ووزارة الخارجية بضرورة إعادة دراسة هذه الفكرة، والتأكد من مدى أهميتها وجديتها بشكل أكبر قبل الموافقة عليها أو رفضها. وانتهى الأمر أخيراً بتأجيل الفكرة إلى وقت لاحق^(٤٨).

في عامي ١٨٥٢ - ١٨٥٣م أقيمت في دمشق، ثم في بيت المقدس دارين للطباعة لإصدار الكتب الدينية الأرثوذكسية، باللغتين العربية واليونانية، في حين قام المطران بارفيري بإجراء جملة من البحوث الدينية في كنيسة القريية ياكاترينا (أو - كاترينا) في سيناء، وبدأ عمله بدراسة نصوص الإنجيل المكتوبة باللغة اليونانية في القرن الرابع، (نقلت هذه النصوص عام ١٨٦٥م إلى سانت بطرس بورغ لمتابعة عملية دراستها، وفي عام ١٩٣٣م بيعت من قبل الحكومة الشيوعية للحكومة البريطانية بمبلغ قدره ١٠٠ ألف جنيه استرليني وما تزال موجودة حتى الآن في المتحف البريطاني)، كما استمر بارفيري في متابعة مهمة رئاسة البعثة، والعناية بالحجاج الروس والأرثوذكس، وتأمين السكن والحماية، وكافة الخدمات القنصلية لهم^(٤٩).

في عام ١٨٥٣م، أعلنت البعثة الروحية الروسية في بيت المقدس الحكومة الروسية، بأن السلطات العثمانية أعطت مفتاح الكنيسة المقدسة في بيت لحم للكنيسة الكاثوليكية بحيلة دبرتها فرنسا، في حين درجت العادة والعرف أن يشرف الروم الأرثوذكس عليها، وبممتلكوا مفاتيحها. عندها طلبت الحكومة الروسية من الدولة العثمانية بشكل رسمي إعادة الحق الأرثوذكسي في امتلاك مفاتيح الكنيسة المذكورة. غير أن السلطان العثماني رفض الطلب الروسي، فأرسلت الحكومة الروسية بدورها الكنياس مينشيكوف بمهمة رسمية إلى القسطنطينية في محاولة منها لحل هذه المشكلة

بالطرق الدبلوماسية، لكن مينشيكوف فشل في إقناع السلطان العثماني في إعادة امتلاك مفاتيح الكنيسة المقدسة. وبناء على ذلك قطعت الحكومة الروسية علاقاتها مع الدولة العثمانية، وتحولت مشكلة ملكية المفاتيح من مجرد مشكلة دينية إلى قضية سياسية كبرى، وأوعزت الحكومة الروسية إلى القنصل العام في بلاد الشام قسطنطين ميخائيلوفتش بازيلى، الذي كان يتخذ من بيروت مقراً له بإنزال العلم الروسي عن القنصلية، والتوجه إلى إيطاليا، ومنها إلى روسيا. كما تم استدعاء المطران بارفيري أوسبينسكي إلى روسيا، وبذلك قطعت روسيا في هذه المرحلة علاقاتها مع الشرق وبدأت حرب القرم بينها وبين الدولة العثمانية التي استمرت طيلة ثلاث سنوات ١٨٥٣ - ١٨٥٦م، وتوسعت خلالها بشكل لم يسبق له مثيل الدعاية الكاثوليكية، وانتشر مبشرو الكاثوليكية في كل مكان من بلاد الشام، وظهرت في فلسطين مجموعات (أخوات رحمة السيد المسيح مريم) و (أخوات النبي يوسف).....الخ^(٥٠).

بعد انتهاء حرب القرم عام ١٨٥٦م، عادت البعثة الروحية الروسية إلى بيت المقدس برئاسة المطران بارفيري أوسبينسكي، الذي تمكن خلال السنوات ما بعد عام ١٨٥٦م، من متابعة مهمة أبحاثه ودراساته والإشراف على أمور الطائفة الأرثوذكسية، وأرسل إلى روسيا مجموعات كبيرة من الكتب والمخطوطات القيمة المكتوبة باللغات العربية واليونانية والأثيوبية والجورجية والسلافية ولغات أخرى، وضعت في أكاديمية العلوم الروسية، والمكتبة القيصرية للعلوم الإنسانية في سانت بطرس بورغ. بالإضافة إلى ذلك، فقد تمكن بارفيري من جمع وإرسال مجموعة متميزة من الأيقونات القديمة، نقلت إلى مدينة كييف، انتقاها من الكنائس والأديرة المنتشرة في أنحاء مدن بلاد الشام. في عام ١٨٥٧م، ازداد عدد المبشرين الأرثوذكس من الروس ليصل إلى ٨٠٠ مبشر. وبهدف تسهيل مهماتهم وتنقلاتهم في بلاد الشام قامت الحكومة الروسية بإنشاء خط اتصال بحري يصل بين مدينتي أوديسة على البحر الأسود، وحيفا في فلسطين. في حين قررت وزارة الخارجية الروسية رفع مستوى

التمثيل الدبلوماسي الروسي في فلسطين نظراً لعودة البعثة الروحية إليها، وقامت بافتتاح القنصلية الروسية في بيت المقدس عام ١٨٥٨م. كما تم تأسيس قسم جديد في وزارة الخارجية الروسية أصبح يعرف باسم قسم فلسطين، وكانت مهمته الأساسية البحث عن مصادر تمويل جديدة لتوظف لزيادة وتوسيع النفوذ السياسي والديني الروسي في بلاد الشام، وزيادة وتفعيل دور روسية في الأرض المقدسة، والتخفيف قدر المستطاع من انعكاسات حرب القرم على هذه المنطقة بشكل عام^(٥١).

خلال فترة زمنية وجيزة، بين نهاية حرب القرم، وعودة البعثة الروحية الروسية لم تتجاوز الثمانية أشهر تمكنت الكنائس والأديرة الروسية ورجال الأعمال الروس من جمع أكثر من مليون روبل من مختلف أنحاء روسية، حولت إلى البعثة الروحية الروسية في بيت المقدس، عن طريق المجلس الجديد الذي أسس في سانت بطرس بورغ، وأصبح يعرف باسم المجلس الفلسطيني، وذلك من أجل شراء الأراضي اللازمة لإقامة الأبنية واستقبال البعثات التبشيرية الروسية وبعثات الحجاج إلى الأراضي المقدسة. لكن المجلس الفلسطيني واجه مشكلة معقدة، تتمثل في أن القوانين الخاصة في الدولة العثمانية لم تكن تسمح للروس بامتلاك الأراضي والعقارات داخل الولايات التابعة للدولة العثمانية، فتوجه رئيسه قسطنطين نيكولايفتش في علم ١٨٥٩م إلى الأراضي المقدسة واشترى بالأموال التي جمعت مساحة كبيرة من الأرض في بيت المقدس، تمتد من بوابة دمشق حتى ساحة الميدان، والتي تعرف الآن بالساحة الروسية. وتمكن قسطنطين نيكولايفتش من تسجيلها لصالح البعثة التبشيرية الروسية في فلسطين. وفي عام ١٨٦٠م، بدأت عملية بناء معبد القديسة الكساندرا، ومعبد القديسين الثلاثة وبيت مكون من طابقين للبعثة التبشيرية الروسية، وبيوت أخرى للمبشرين الروس^(٥٢).

خلال سنوات ١٨٦٣ - ١٨٦٥م، تولى الأرخيماندير ديلونيد (كافيلين) مهمة رئاسة البعثة التبشيرية الروسية، وأشرف على بناء كاتدرائية مقابل بوابة يافا ومكان لإقامة

الرهبان والمتعبدين، وبيوت للدبلوماسيين، وأربعة بيوت أخرى في حيفا والرملة وبافلا والناصرية. وفي عام ١٨٦٤م وبدعم من القيصر الروسي ألكسندر الثاني، تم إنشاء لجنة فلسطين في وزارة الخارجية الروسية، عوضاً عن المجلس الفلسطيني، وأوكلت إلى هذه اللجنة مهمة الاستمرار في عملية شراء الأراضي، وبناء الكنائس والمستشفيات ومنازل للفقراء، بالإضافة إلى مسألة الإشراف على دراسة تاريخ سورية ومصر^(٥٣).

في عام ١٨٦٥م، بدأ النشاط الفعال والمؤثر للمطران أنطونين، الذي عين رئيساً جديداً للبعثة التبشيرية الروسية. وفي عهده بدأت تظهر بعض مظاهر الخلط بين البعثة التبشيرية الروسية من جهة والبعثة الدبلوماسية الروسية من جهة أخرى، حيث سعت الخارجية الروسية إلى تشكيل ضغط سياسي على البعثة التبشيرية فيما يتعلق برعاية الحجاج ومساعدة الأرثوذكس العرب واليونانيين. غير أن البعثة التبشيرية استمرت في ممارسة نشاطاتها في فلسطين، في وقت تعاضم فيه مرة أخرى اهتمام روسيا السياسي في فلسطين وبلاد الشام، وقد ارتبطت عملية تزايد النفوذ الروسي هذا بتسليم نيقولايف بافلوفتش أغناطيوف سفيراً لروسيا القيصريّة في القسطنطينية، خلال سنوات ١٨٦٤ - ١٨٧٦م، والمتخصص بالسياسات الإنكليزية في الشرق. وكان أغناطيوف قد توصل إلى اعتقاد مفاده أن انكلترا هي العدو الرئيسي لروسيا القيصريّة في الشرق، وأنه يمكن لروسيا حل مشاكلها في المنطقة والبلقان عن طريق ضرب الإنكليز في مستعمراتهم الآسيوية^(٥٤).

خلال فترة عمله سفيراً لبلادها في القسطنطينية، قام أغناطيوف بتشكيل شبكة تجسس كبيرة، وقدم له مسيحيو الشرق من أرمن ويونان وأرثوذكس معلومات قيّمة مقابل تقديم الحماية والأموال اللازمة لهم، حتى أن بعض الموظفين من العثمانيين كانوا يقدمون له الوثائق السرية اللازمة، التي كان يكلف بالعمل على الحصول عليها، نظراً لأهميتها الكبيرة. لكن نشاطاته كانت في بلاد الشام عموماً، وفي فلسطين

خصوصاً، من خلال تعاونه مع القنصل الروسي في بيت المقدس، أندري نيكولا يفتش كارتسوف. وحققت الدبلوماسية الروسية بتعاونهما نجاحات كبيرة خلال تلك الفترة في فلسطين.

بقي أن نشير إلى أن أندري نيكولا يفتش كارتسوف كان قد عمل في قسم أسية التابع لوزارة الخارجية الروسية، في الوقت الذي كان فيه أغناطيوف مديراً لهذا القسم. وقد لعب كارتسوف دوراً كبيراً في توجيه السياسات الروسية المتبعة في فلسطين خلال أعوام السبعينات، من القرن التاسع عشر خصوصاً عندما تضاربت مصالح واهتمامات الروم الأرثوذكس مع مصالح اللاتين، وأدى ذلك إلى تعارض اهتمامات الإمبراطورية الروسية مع فرنسا، وبفضل حنكة كارتسوف انتهت مسألة الخلاف حول السيادة على كنيسة مدفن السيد المسيح، بحيث وضع قسم من هذه الكنيسة تحت إشراف اليونان، في نفس الوقت الذي كان فيه للكاتوليك الحق في ممارسة عقائدهم الدينية، وصلواتهم في هذه الكنيسة أثناء احتفالاتهم بأعيادهم الدينية، وذلك بعد الحصول على موافقة من اليونان الأرثوذكس. وفي عام ١٨٦٥م، بدأت فرنسا وروسية بإعادة بناء كنيسة مدفن السيد المسيح، وتولى الإمبراطور إلكساندر الثاني ونايليون الثالث مسألة الإشراف على ذلك وتمكن كارتسوف من بناء علاقات طيبة مع أكثر من طرف، وكانت تربط علاقات جيدة مع بطريرك القدس كيريل، والقنصل الفرنسي فيها دي باريرا. ومن خلال تعاونه مع البطريرك كيريل، استطاع تقديم المساعدات والدعم اللازم للمسيحيين العرب، وأشرف على الكنائس الروسية والبيوت والمنشآت التابعة لها في القدس والرملة وحيفا.

الهوامش

- 1- НОВАЯ ИСТОРИЯ СТРАН ЗАРУБЕЖНОЙ АЗИИ И АФРИКИ. ИЗД. ЛЕНИНГРАДСКИЙ УНИВЕРС. 1971 г. 120-121.
- 2- ТАМ ЖЕ С. 181.
- 3- أنظر تفاصيل حملة نابليون في أسرار حملة نابليون على مصر — حسني أدهم جرار — دار الضياء، عمان ١٩٩٠
- العسلي بسام: نابليون بونابرت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى ١٩٨٠.
- 4- J.C. Hurewitz Diplomacy in the Near and Middle East, London 1956, Vol. I, P. 65.
- 5- Ibid. p.66 — 67.
- 6- Ibid. p.75 — 76
- 7- НОВАЯ ИСТОРИЯ СТРАН ЗАРУБЕЖНОЙ АЗИИ И АФРИКИ. С. 156.
- 8- J.C.Hurewitz. Op.Cit. P.7 — 72.
- 9- دريو ادوارد: تاريخ اليونان السياسي، الجزء الأول، باريس ص ١٩١.
- 9- НОВАЯ ИСТОРИЯ СТРАН ЗАРУБЕЖНОЙ АЗИИ И АФРИКИ. С. 158.
- 10- ТАМ ЖЕ С. 159.

- ١١- الرافعي بك عبد الرحمن: عصر محمد علي، الجزء الثالث، مطبعة النهضة ١٩٤٩ ص ٢١٤.
- شبلي أحمد: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، الجزء الخامس ص ٤٠٥ - ٤٠٦.
- ١٢- الرافعي بك عبد الرحمن: المرجع السابق، ص ٢٢٤.
- ١٣- الغنام سليمان بن محمد: قراءة جديدة لسياسة محمد علي التوسعية ١٨١١ - ١٨٤٠م في الجزيرة العربية والسودان واليونان وسوريا، الطبعة الرابعة ١٩٩٠م/ ص ٧٢.
- 14- НОВАЯ ИСТОРИЯ СТРАН ЗАРУБЕЖНОЙ Азии и Африки. с. 160.
- ١٥- يانج جورج: صفحات من تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية عهد إسماعيل، ترجمة أحمد علي شكري، القاهرة ١٩٩٠/ ص ١٦٦.
- 16- К.МАРКС. Ф. ЭНГЕЛЬС СОЧИНЕНИЕ. Т. ٥. 32.
- 17- НОВАЯ ИСТОРИЯ СТРАН ЗАРУБЕЖНОЙ Азии и Африки. с. 162.
- ١٨- بازيلى: سوريا ولبنان وفلسطين تحت الحكم التركي من الناحيتين السياسية والتاريخية ترجمة د. ميسر جابر و د. منذر جابر، دار الحداثة، الطبعة الأولى ١٩٨٨م/ ص ١٦٢ - ١٦٣.
- ١٩- المصدر نفسه ص ١٦٤ - ١٦٥.
- ٢٠- المصدر نفسه ص ١٦٥.

- 21- Новая история стран зарубежной Азии и Африки. с. 162
- 22- J.C.Hurewitz. Op.Cit. p.106.
- 23- Новая история стран зарубежной Азии и Африки. с. 163.
- 24- J.C.Hurewitz. Op.Cit. p. 107
- 25- Сирия, Ливан и Палестина в описаниях российских путешественников, консульских и военных обзорах первой половины XIX в. М. Наука. 1991. с. 168.
- 26- J.C.Hurewitz. Op.Cit. p. 105 — 106
- 27- Сирия, Ливан и Палестина... с. 169.
- 28- ТАМ ЖЕ с. 174, 175.
- 29- Губор А.А. Новая история стран зарубежного Востока. М. 1961. с. 114.
- 30- Новая история стран зарубежной Азии и Африки. с. 184.
- 31- ТАМ ЖЕ с. 185.
- 32- حسين أحمد: موسوعة تاريخ مصر، الجزء الثالث، دار الشعب، ص ٩٦٩.
- 33- J.C. Hurewitz. Op.Cit. p. 112 - 113.
- 34- J.C. Hurewitz. Op.Cit. p. 113.
- 35- بازيلي: المصدر السابق ص ٢٧١.
- 36- بازيلي: المصدر نفسه ص ٣١١.

٣٧- ولد بازيلى عام ١٨٠٩م في مدينة القسطنطينية، في عائلة يونانية مرتبطة بحركة التحرر الوطني اليونانية والألبانية. سنة ١٨٢١م حكم على والده ميخائيل فاسيليفيش بالموت شنقا لمساندته الحركة اليونانية، لكنه تمكن بمساعدة السفير الروسي الكونت ستروكانوف من الهروب من الدولة العثمانية والوصول إلى ميناء أوديسة. دخل بازيلى سنة ١٨٢٢م معهد العلوم العليا في (نجين) حيث أتقن اللغة الروسية، وارتبط بصداقات قوية مع بعض زملائه من طلاب المعهد مثل ن ف غوغول شاعر أوكرانية الكبير فيما بعد، و.ي. غ. غرينبكا الذي أصبح لاحقا أستاذا في الحقوق. وفي عام ١٨٢٧ التحق بازيلى في ليسيه (ريشيليو) في مدينة أوديسة وبعد تخرجه سنة ١٨٣٠م سافر إلى اليونان وعمل مترجما لدى قائد الأسطول الروسي في البحر المتوسط الأدميرال ريكورد. وفي سنة ١٨٣٣م انتقل إلى العمل في وزارة الخارجية الروسية في سانت بطرس بورغ. وفي عام ١٨٣٩م عين بازيلى قنصلا في بيروت وبقي فيها حتى بداية حرب القرم بين روسيا والدولة العثمانية عام ١٨٥٣م.

38- Сирия, Ливан и Палестина... с. 178.

39- Там же с. 179.

٤٠- بازيلى: المصدر السابق، ص ٣٦٢.

٤١- المصدر نفسه، ص ٣٦٣.

42- Сирия, Ливан и Палестина ... с. 180

٤٣- بازيلى: المصدر السابق، ص ٣٧٣.

44- Сирия, Ливан и Палестина... с. 182.

- 45- СТАВРОУ Т.Г. . ВЕЙСЕНСЛЬ П.Р. РУССКИЕ ПУТЕШЕСТВЕННИКИ НА ХРИСТИАНСКИЙ ВОСТОК ЗА ПЕРИОД С XII ПО XX ВВ. М. 1986. С. 57.
- 46- ТАМ ЖЕ С. 184
- 47- ТАМ ЖЕ С. 184
- 48- ТАМ ЖЕ С. 185
- 49- ТАМ ЖЕ С. 186
- 50- ПРАВОСЛАВНЫЙ ПАЛЕСТИНСКИЙ СБОРНИК 1882-1992. 31-й вып. С. 4.
- 51- СТАВРОУ Т.Г. . ВЕЙСЕНСЛЬ П.Р. РУССКИЕ ПУТЕШЕСТВЕННИКИ... С. 62.
- 52- ТАМ ЖЕ С. 65.
- 53- СИРИЯ, ЛИВАН И ПАЛЕСТИНА ... С. 187.
- 54- ТАМ ЖЕ С. 188.

- ١١- ريجينكوف. ا. سماليكايا: سوريا ولبنان وفلسطين في النصف الأول من القرن التاسع عشر، مذكرات رحالة - تقارير علمية واقتصادية، ترجمة يوسف عطا الله، بيروت، دار النهار ١٩٩٣م.
- ١٢- سالم لطيفة: الحكم المصري في الشام ١٨٣١ - ١٨٤١م، مكتبة مدبولي القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٩٠م.
- ١٣- شبلي أحمد: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية الجزء الخامس، مكتبة النهضة المصرية.
- ١٤- صبري محمد: صفحات من تاريخ مصر، تاريخ مصر من محمد علي إلى العصر الحديث مكتبة مدبولي القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩١م.
- ١٥- عبير جميل: قصة احتلال محمد علي لليونان ١٨٢٤ - ١٨٢٧م، الهيئة المصرية العامة للمكتبات.
- ١٦- العسلي بسام: نابليون بونابرت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى ١٩٨٠م.
- ١٧- عنان ليلي: الحملة الفرنسية بين الأسطورة والحقيقة - القاهرة دار الهلال ١٩٩٢م.
- ١٨- كربتيس بيير: إبراهيم باشا - ترجمة محمد بدران، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة ١٩٣٧م.
- ١٩- هيرولد كرستوفر: بونابرت في مصر، ترجمة فؤاد أندراوس، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٦٥م.
- ٢٠- يانج جورج: صفحات من تاريخ مصر، تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية عهد إسماعيل ترجمة علي أحمد شكري، مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٩٠م.

ب. المصادر والمراجع الأجنبية (الروسية):

- 1- АРХИМАНДРИД АНТОНИН (КАПУСТИН). К 100-ЛЕТИЮ СОДНЯ КОНЧИНЫ. ПРАВОСЛАВНАЯ РУСЬ. 1994. № (1507). 15/28 МАРТА.
- 2- БЕРЕЗОВСКИЙ Н.Ю. и ДР. РОССИЙСКИЙ ИМПЕРАТОРСКИЙ ФЛОТ. 1606 - 1917. ВОЕННО-ИСТОРИЧЕСКИЙ СПРАВОЧНИК. М. РУССКИЙ МИР. 1993. с. 196.
- 3- ГУБОР А.А. НОВАЯ ИСТОРИЯ СТРАН ЗАРУБЕЖНОГО ВОСТОКА. М. 1961.
- 4- МАРКС. К., ЭНГЕЛЬС. Ф. СОЧ. Т. 9.
- 5- НОВАЯ ИСТОРИЯ СТРАН ЗАРУБЕЖНОЙ АЗИИ И АФРИКИ. ИЗД. ЛЕНИНГРАДСКИЙ УНИВЕРСИТЕТ. 1971.
- 6- ПОЛНЫЙ ПРАВОСЛАВНЫЙ БОГОСЛОВСКИЙ ЭНЦИКЛОПЕДИЧЕСКИЙ СЛОВАРЬ. Т. I.
- 7- ПРАВОСЛАВНЫЙ ПАЛЕСТИНСКИЙ СБОРНИК. 1882-1992. 31-й вып.
- 8- РОССИЙСКАЯ ДИПЛОМАТИЯ В ПОРТРЕТАХ.
- 9- РУССКАЯ ДИПЛОМАТИЯ И РОССИЙСКОЕ ИМПЕРАТОРСКОЕ ПРАВОСЛАВНОЕ ПАЛЕСТИНСКОЕ ОБЩЕСТВО. ЕЖЕГОДНИК. М. МЕЖД. ОТН. 1992.
- 10- СИРИЯ. ЛИВАН И ПАЛЕСТИНА В ОПИСАНИЯХ РОССИЙСКИХ ПУТЕШЕСТВЕННИКОВ, КОНСУЛЬСКИХ И ВОЕННЫХ ОБЗОРАХ ПЕРВОЙ ПОЛОВИНЫ XIX В. М. НАУКА. 1991.

- 11- СТАВРОУ Т.Г. ВЕЙСЕНСЕЛЬ П.Р. РУССКИЕ ПУТЕШЕСТ-
ВЕННИКИ НА ХРИСТИАНСКИЙ ВОСТОК ЗА ПЕРИОД
XII по XX век. М. 1986.

جـ . المصادر باللغة الإنكليزية:

- 1- J.C. HUREWITZ. **Diplomacy in the NEAR AND MIDDLE EAST.** vol.1. London 1956.